

دراسة كتابة الإسكندرية في رواية "ترابها زعفران" لإدوار الخراط

د. يوان مينغ هوي

مُدرس اللغات الأجنبية وآدابها

كلية الدراسات الآسيوية والإفريقية، جامعة شانغهاي للدراسات الدولية



## A Study of Alexandrian City Writing in Edwar Al-Kharrat's *City of Safforn*

### Abstract:

Alexandria is the eternal protagonist of Edwar Al-Kharrat's novels. In *City of Safforn*, Al-Kharrat takes the story of Mikhail, his family and friends as the main line to build a tripartite representational relationship between history, memory and space, through multi-dimensional sensory experience such as touch, smell and hearing, which depicts a panoramic view of cosmopolitan Alexandria before and after World War II. From the perspective of city writing, this paper intends to analyze Al-Kharrat's love for Alexandria, and to clarify how the street scene, home, and sea representing the historical memory and urban spirit of Alexandria, thus exploring the nostalgia and its significance, and showing the image of Alexandria in Al-Kharrat's eyes, which is completely different from that of Western writers. Through the connection between personal memory and urban space, Al-Kharrat uses fragmented aesthetics to present the process of historical development and current dilemma of Alexandria, thereby constructing a new paradigm of nostalgic writing.

**Keywords:** Edwar Al-Kharrat, *City of Safforn*, Alexandria, city writing, nostalgia

### دراسة كتابة الإسكندرية في رواية "تراها زعفران" لإدوار الخراط

#### الملخص:

الإسكندرية هي البطلّة الأبدية لروايات إدوار الخراط. في روايته التمثيلية "تراها زعفران"، يتخذ الخراط من الإسكندرية في ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين محورا رئيسا، ويتخذ من قصة ميخائيل وعائلته وأصدقائه خطأ رئيسا لبناء علاقة التمثيل الثلاثي بين التاريخ والذاكرة والفضاء، وذلك من خلال تجارب حسية متعددة الأبعاد مثل اللمس والشم والسمع، مما يصور منظرا بانوراميا لطابع الإسكندرية العالمي قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها. ينطلق هذا البحث من منظور كتابة المدينة لتحليل حبّ الخراط للإسكندرية، ودور تجربته الحضرية في مساعدة كتابة المدينة، وتوضيح كيفية تحوّل مناظر الشوارع والمنزل والبحر إلى فضاءات مجازية تمثل الذاكرة التاريخية، والروح الحضرية للإسكندرية في الرواية، وبالتالي استكشاف الحنين إلى الماضي وأهميته لكتابة الإسكندرية، مما يظهر صورة الإسكندرية في عيون الخراط التي تختلف تماما عن صورة الكتاب الغربيين. ومن خلال الارتباط الوثيق بين الذاكرة الشخصية والفضاء الحضري، يستخدم الخراط الجماليات المجزأة لتقديم عملية التطور التاريخي والمعضلة الحالية للإسكندرية، مما يبني نموذجا جديدا من كتابة الحنين إلى الماضي مع تيار الوعي.

**الكلمات المفتاحية:** إدوار الخراط، تراها زعفران، الإسكندرية، كتابة المدينة، الحنين إلى الماضي

## دراسة كتابية الإسكندرية في رواية "ترايبها زعفران" لإدوار الخراط

### المقدمة

ترجع مكانة الإسكندرية في الكتابة الأدبية في المقام الأول إلى تاريخها الطويل. في عام ٣٣٢ قبل الميلاد، أنشأ الإسكندر الأكبر، ملك مملكة مقدونيا، مدينة تحمل اسمه خلال الحملة الشرقية، وبذلك يكمل غزوه لعالم البحر الأبيض المتوسط القديم. أصبحت الإسكندرية منذ إنشائها مركزا سياسيا واقتصاديا وثقافيا لعالم البحر الأبيض المتوسط بحكم موقعها الجغرافي الفريد، وتعرف باسم "عروس البحر الأبيض المتوسط". وعلى مدى أكثر من ألفي عام، استفادت هذه المدينة من التغذية المتعددة للثقافات اليونانية والرومانية والقبطية المصرية والعربية الإسلامية، حيث أصبحت مكانا مهماً لدمج الثقافات المتنوعة. كانت الإسكندرية عاصمة الإمبراطورية المقدونية اليونانية، وموطن مكتبة الإسكندرية الشهيرة، ومسقط رأس الأفلاطونية الحديثة، وقد وصفها بعض العلماء بأنها "فرع للحضارة الأوروبية التي ازدهرت على الساحل الإفريقي" (Haag, 2004, p. 11).

لقد وفّرت التراكمات التاريخية العميقة للإسكندرية والتفاعلات الثقافية المتكررة إلهاماً إبداعياً غنياً للكُتاب الشرقيين والغربيين المقيمين هنا، فهي مدينة الكُتاب الغربيين المشهورين مثل بلوتارخ، وكفاي، وفورستر، وداريل. وتستمر الكتابة في طابع الإسكندرية العالمي، وتسلب الضوء على الدور الفريد الذي يلعبه الأدب في تشكيل الخيال الثقافي للإسكندرية وتوصيفه. ومع ذلك، غالباً ما تحتوي الأعمال الأدبية للكُتاب الغربيين على منطوق خطاب استشراقي ضمني أو صريح، منفصل عن الفضاء المادي والواقع الاجتماعي للإسكندرية منذ فترة طويلة، حيث يعيق خطابهم السردي بناء صورة الإسكندرية الحقيقية، مما تسبّب في سوء الفهم الثقافي. ولخص المؤرخ الفرنسي روبرت إلبرت (Robert Ilbert) أهمية الإسكندرية العالمية والتراث الأدبي الذي ولدته، وأشار بوضوح إلى أن العديد من الأعمال الأدبية غير العربية عن الإسكندرية فشلت في إظهار الوجه الحقيقي لمصر. (Starr, 2009, pp. 38-39) وتشير وجهة نظره إلى محدودية الأعمال الأدبية الغربية في تقديم صورة الإسكندرية، مما دفعني لملاحظة كيفية تشكيل كتابات الإسكندرية للكُتاب المصريين المحليين صورة حقيقيّة للمدينة.

تظهر الإبداعات الأدبية للكاتب المصري من كُتاب جيل الستينيات إدوار الخراط، ميلا واضحا للكتابة عن الفضاءات الحضرية، وتتركز كتاباته في الغالب على الإسكندرية. كان تفضيل الخراط للإسكندرية يرجع بشكل رئيسي إلى حبّه الخاص لهذه الأرض، فقد عاش في الإسكندرية معظم حياته وأبدع معظم أعماله هنا. بنى الخراط الهوية الفريدة للإسكندرية من خلال أعماله الأدبية وحقق إنجازات ملحوظة في كتابة الأدب المصري المعاصر المتمركز حول الإسكندرية. وتستفيد إنجازات الخراط الأدبية من خلفيته الثقافية الغنية والمتنوعة، حيث تمنح الثقافة القبطية والثقافة العربية الإسلامية والتقاليد الأدبية الغربية أعماله تنوعاً ثقافياً وأسلوبياً عالمياً. تعكس أعماله هويات متقاطعة ويجسد روحاً عالمية. وتجسد هذه الهوية المتنوعة ما يسميه الخراط أصالة الثقافة المصرية: "أصالتنا الثقافية بعيدة كل البعد عن أن تشكل انتماء قومياً أو عنصرياً، بل هي تراكم. إنها اندماج عناصر موحدة." (Al-Kharrat, 2005, p. 21)

اشتهر الخراط (١٩٢٦-٢٠١٥) بعمله التمثيلي "ترابها زعفران" (١٩٨٥) التي كتبت عن مسقط رأسه الإسكندرية في أعماق ذاكرته. تُعتبر "ترابها زعفران" روايةً نثرية لها طبيعة المذكرات، ويمكن اعتبارها أيضاً رواية حديثة عن ميخائيل. تدور أحداث الرواية في الإسكندرية في ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين، وتتخذ قصة بطل الرواية، الصبي القبلي ميخائيل، وعائلته وأصدقائه، محوراً رئيسياً من أجل القراءة عن المدينة المليئة برائحة الزعفران من خلال تجارب حسية متعددة الأبعاد مثل اللمس والشم والسمع، مما يستحضر تصورات متعددة الأبعاد للتاريخ والذاكرة والفضاء، ويلتقط وينشط الفضاء العالمي الاستعماري للإسكندرية قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها. في هذه الرواية التي تدور حول الإسكندرية وذاكرتها، يستخدم الخراط تجربة طفولته نموذجاً، فمن خلال الكتابة الدقيقة للمشاهد الجغرافي للإسكندرية، يحاول استعادة شظايا ذاكرة المدينة والتعبير عن حنينه إلى الماضي وتعلقه بمسقط رأسه.

### الدراسات السابقة:

أولت الأوساط الأكاديمية اهتماماً بالغاً لرواية "ترابها زعفران". يركز بعض العلماء على طابع الإسكندرية العالمي في الرواية. تتخذ ديورا ستار (Deborah Starr) رواية "ترابها زعفران" مثالا للتأكد على العلاقة المتأصلة بين العالمية والاستعمار، معتبرة أنّ هذه الأعمال المكتوبة باللغة العربية بمثابة التشكك في الهياكل الإمبراطورية ومقاومتها (Starr, 2009, p. 42). تقول هالة حليم (Hala Halim) إنّ "روايات إدوار الخراط تقدّم بديلاً لإعادة تشكيل الكوسموبوليتانية في فترة ما بعد الاستعمار من خلال مناشدة التقاليد الشعبية المتمثلة في التوفيق بين المعتقدات والمعاملات المتبادلة بين الأديان" (Halim, 2013, pp. 13-14). ويرى العلماء الآخرون أنّ "ترابها زعفران" هي رواية عن ذاكرة مدينة الإسكندرية. ترى ماجدة النويهي (Magda Al-Nowaihi) أنّ "ترابها زعفران" عمل ذو انسيابية قوية، وتستكشف العلاقة بين الذاكرة الشخصية لبطل الرواية ميخائيل وذاكرة مدينة الإسكندرية. (Al-Nowaihi, 1994, p. 34) تتخذ زو لان فانغ رواية السيرة الذاتية "ترابها زعفران" مثالا، وتعتقد أنّ الذاكرة الإقليمية للإسكندرية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالذاكرة الفردية للكاتب. (邹兰芳, 2016, 页 250)

إنّ النتائج المذكورة أعلاه مفيدة لفهم رواية "ترابها زعفران"، ولكن لا تزال هناك بعض النقائص، والتي تتجلى بشكل رئيسي في ما يلي: أولاً، لاحظت النتائج الموجودة مشاعر الخراط الفريدة تجاه الإسكندرية، لكنها لم تنتبه إلى الفروق بين الخراط والكتاب الغربيين في كتابة المدينة؛ ثانياً، تركز الأبحاث الحالية عمومًا على الطبيعة العالمية لكتابة الإسكندرية، وتولي اهتماماً أقلّ لكيفية استجابة الرواية للواقع الاجتماعي المصري في ظل الحنين إلى الماضي؛ ثالثاً، لم يسبق للأوساط الأكاديمية أن جمعت بين نظرية كتابة المدينة في سياق ما بعد الحداثة لفهم الاستعارة الدلالية والأهمية التمثيلية للفضاءات الحضرية في الإسكندرية.

### منهج البحث:

نشأت دراسة كتابة المدينة في سياق ما بعد الحداثة وهي فرع مهم من نظرية النقد المكاني. هذا المصطلح مشتق من مفهوم "الكتابة" من قبل منظري ما بعد الحداثة مثل جاك دريدا (Jacques Derrida)، ويهدف إلى إظهار أنه بالإضافة إلى وظيفتها التقليدية في تسجيل التاريخ، يمكن أن

تتجاوز "الكتابة" الدال والمدلول أنفسهما. اقترح مايك كرانج (Mike Crang) ذات مرة مفهوم "كتابة المدينة" في كتابه "الجغرافيا الثقافية"، حيث رأى أن "المدينة ليست المكان الذي تدور فيه القصة فحسب، بل إن وصف المشهد الجغرافي الحضري يعبر أيضاً عن المجتمع والحياة" (迈, 2003, 页 63). كذلك، فيما يسمى "كتابة المدينة" لكرانج، "المهمّ ليس كيفية وصف المدينة أو الحياة الحضرية بدقة، ولكن المعنى الرمزي للمدينة وللمشهد الحضري" (Crang, 1998, p. 50). يعتقد الباحث الصيني ووتشينغ جون أن "كتابة المدينة هي تمثيل الروائي المتعمد أو غير المتعمد للمركبات الاجتماعية والثقافية للمدينة في النص، ويمكنها السفر عبر الزمان والمكان، مما يسمح للقراء ليس فقط برؤية المشهد الحضري في ذلك الوقت، ولكن أيضاً لاستكشاف الرواسب الاجتماعية والتاريخية والثقافية العميقة من خلال المشهد الحضري" (吴庆军, 2013, 页 133). فكتابة المدينة ليست مجرد عرض أدبي للنص الملموس للفضاءات الحضرية، ولكنها أيضاً نوع من كتابة الخطاب الذي يتضمن قيماً ثقافية معينة. الاثنان متشابكان ومتداخلان مع بعضهما البعض، ويشكلان معاً صورة الكاتب المرنة للمدينة. ينطلق هذا البحث من منظور كتابة المدينة لتحليل حبّ الخراط للإسكندرية، وتوضيح القيمة الفريدة لروايته "تراها زعفران" في بناء الشكل المكاني الحضري للإسكندرية، وإظهار دور روايته في الحفاظ على الذاكرة التاريخية عن الإسكندرية، وتمثيل الواقع الاجتماعي، وإظهار روح المدينة، مما يلخص كيفية استجابتها للواقع الاجتماعي المصري في ظل منظور الكتابة المكانية والحنين إلى الماضي والتعددية الثقافية، وبالتالي بناء صورة الإسكندرية التي تختلف تماماً عن صورة الكتاب الغربيين.

### أولاً: حبّ الخراط للإسكندرية وتجربته الحضرية

ترتبط حياة الخراط ارتباطاً وثيقاً بالإسكندرية. ولد في ١٦ مارس ١٩٢٦ بالإسكندرية لعائلة قبطية بصعيد مصر. حصل على ليسانس الحقوق من جامعة الإسكندرية عام ١٩٤٦. وبعد تخرجه عمل مترجماً ومحامياً وصحفيّاً وأستاذاً جامعياً، كما شغل منصب الأمين العام لاتحاد الكتاب الآسيويين الأفارقة. وفي عام ١٩٤٨، ألقى القبض عليه وسجن لمشاركته في الحركة الوطنية الثورية بالإسكندرية. ومن وجهة نظر حياة الخراط، كانت الإسكندرية المكان الذي ولد ونشأ فيه، وقضى معظم أوقاته في الإسكندرية، وكان على دراية بجغرافية الإسكندرية ومناظرها الطبيعية، وتأثر بشدة بأجوائها المتعددة الثقافات. وانطلق خيال الخراط من حبّه للإسكندرية، حيث إن الإسكندرية مصدر إلهامه ومسقط رأس إبداعاته الأدبية.

أعلن الخراط بصراحة أنه الكاتب الوحيد في العالم العربي الذي كان شغوفاً بالإسكندرية، ووصف الإسكندرية بأنها عالم حقيقي يحمل حلم حياته، حيث أصبحت مدينة ذكريات تتشابك بين الأحلام والواقع. بالنسبة للخراط، المدينة هي امرأة أبدية قابلة للتغيير إلى ما لا نهاية. وفي الوقت نفسه، لم تكن الإسكندرية خلفية إبداعه الروائي فحسب، بل كانت أيضاً قوة إيجابية وبطلته كتابته الأدبية. ومن وجهة نظره، فإن الإسكندرية نفسها إلى حد ما هي القوة الدافعة وراء عملية السرد وتطور القصة. قارن الخراط بصراحة الاختلافات بينه وبين الكتاب الآخرين في الكتابة عن المدن أو الأرياف: "ومهما كان من حفاوة كاتب مثل نجيب محفوظ بأزقة وحواري الجمالية، أو كانت مثل عبد الرحمن الشرقاوي، وغيره من كتّاب الريف، بقراهم، فقد كانت المدينة والأرض عندهم،

في نهاية الأمر ديكورا خلفيا، وفي أحسن الأحوال موضوعا أو ساحة للفعل الروائي." (الخراط، ١٩٩٤، صفحة ٦) كلام الخراط ليس بالقصد إنكار الإنجازات الأدبية الرائعة لنجيب محفوظ، باعتباره الحائز الوحيد على جائزة نوبل للأدب في العالم العربي حاليا، حيث تتسم أعماله بالنضج الفني وجمال الوصف سواء على مستوى التسجيل أو التوظيف. بالنسبة للخراط، فإن أصالة النص تأتي جزئيا من علاقته بالمكان، وكان يريد من الكتاب العرب أن يتحرروا من "الديكور الخلفي" وأن ينظروا إلى المدينة كجزء لا يتجزأ من الفعل الروائي، وليس مجرد مكان أو موضوع التمثيل. وركز في "ثلاثية الإسكندرية" على الفضاءات الحضرية التي كان يعرفها، ووصف بالتفصيل أحياء غيط العنب والأنفوشي التي تجاهلها الكتاب الغربيون. في الواقع، أصبحت الإسكندرية بطله أساسية في الإبداع الأدبي للخراط حتى يُعرف باسم "عاشق الإسكندرية". وفي مقدمة "إسكندرיתי: مدينتي القدسية الحوشية"، أعرب عن مشاعره الخاصة تجاه هذه المدينة:

"هي ليست موقعا جغرافيا جميلا فقط، وليست فقط ساحة الالتقاء واصطدام الناس الذين يعملون ويحبون ويموتون على أرض الحياة اليومية، وليست فقط مستودع ترسب ثقافات وحضارات تاريخية، عريقة وراهنة، هي ذلك كله. وهي كذلك حالة من حالات الروح ومغامرة سعي لاستيعاب حقيقة داخلية، وهي مواجهة ميتافيزيقية أيضا لغموض المطلق والموت الممتد على صفحة بحر ساجية أو جياشة، نحو أفق ملتبس، بلا حد." (الخراط، ١٩٩٤، الصفحات ٥-٦)

إن حبّ الخراط للإسكندرية وتجربته الحضرية أمّاه أساس إبداعي لإعادة إنتاج تاريخ المدينة وثقافتها وذاكرتها وواقعها الاجتماعي. تستخدم العديد من أعماله الإسكندرية موضوعا سرديا، مثل "تراها زعفران" (١٩٨٥)، و"يا بنات إسكندرية" (١٩٩٠)، و"إسكندرיתי: مدينتي الحوشية القدسية" (١٩٩٤)، إلخ. تستنسخ هذه الأعمال وتتأمل المشهد الحضري والعلاقات الدينية والأجواء الثقافية والقضايا الاجتماعية وغيرها في الإسكندرية من الثلاثينيات إلى الخمسينيات من القرن العشرين، وتظهر صورة الإسكندرية في عيون الكاتب بطريقة الحنين إلى الماضي.

في رواية "تراها زعفران" و"يا بنات الإسكندرية"، تصبح الذاكرة الحضرية للإسكندرية آلية لدفع عملية السرد، حيث إنّ هذه الذاكرة للأشخاص والأماكن الماضية تجعل من الخراط كاتباً مشابهاً لأسلوب تيار الوعي لدى الكاتب الفرنسي بروس. وفي عملية تشكيل ذاكرة المدينة، اندمجت الشخصيات في الرواية تدريجياً مع الإسكندرية وأصبحت رمزاً للمدينة، وبذلك أصبحت هذه الشخصيات رموزاً لعمارات الإسكندرية ومنحوتاتها، تنقل شغف المدينة الأبدية في عيون ميخائيل. وفي "إسكندرיתי: مدينتي الحوشية القدسية"، فإن النصّ عن الإسكندرية الذي تم إنشاؤه للخراط هو "كولاج" سردي أقرب إلى الإبداعات المألوفة في الفنون التشكيلية، حيث يحتوي على أنواع مختلفة من الصور والقطع المشتقة من المواد والمصادر المختلفة. كما نجد أن السرد الكولاجي للخراط "عكس الأنا العنائي بصورة بارزة بين دفتي روايته، فهي ذريعة ليغوص الروائي في ذاته، وانفعالاته وهواجسه" (دلشاد، ٢٠٢١، صفحة ٨١). كان الخراط يأمل أن ينتج هذا النص الكولاجي الذي أبدعه بنفسه صورة جديدة للإسكندرية بألوان مختلفة، وبالتالي ينقل حبّه العميق وتعلقه بالإسكندرية.

وفي الفصل الخامس من "يا بنات الإسكندرية" مقطع يتّسم بالشعرية يمتدح الإسكندرية: "عرّشت أشواق عشقي في مدينتي العظمى الإسكندرية الثغر المحروس الميناء الذهبية رؤيا ذي القرنين وصنيعة سوستراتوس المهندس العظيم ولؤلؤة قلبطرة الغانية الأبدية، المدينة الساطعة المرخمة لا تحتاج بالليل إلى نور لفرط بياض رخامها." (الخراط، ١٩٩٠، صفحة ٨١) ويشار إلى المعالم والآثار في كل ركن من أركان الإسكندرية بأسماء يونانية وعربية، لتصبح مكاناً تلتقي فيه الثقافات المتنوعة.

في "تراها زعفران"، وضع الخراط عنواناً فرعياً للرواية هو "نصوص إسكندرانية"، قصد إبراز مشاعره الخاصة تجاه هذه المدينة. بالنسبة للخراط، أصبحت الإسكندرية وجوداً دائماً. كانت الإسكندرية مقراً للفلسفة الأفلاطونية الحديثة، التي أوضحت نظرية العلاقة بين الإنسان والآلهة، أو الزمنية والخلودية. لا يخفي الخراط وجهة نظره القائلة بأن المطلق هو تجسيد الإنسان، ولأن المطلق موجود أيضاً في النسبي والزائل والطارئ، فإن الزمن يمكن تخريبه ودحضه. وعلى حد تعبيره، فإن نتيجة هذا الاعتقاد هي أن "مسألة الزمانية والأبدية لم تعد مطروحة، والعلاقة بين الاثنين نفسها ملغاة، وليس هناك خلود، وليس هناك زوال. الأبدية هي المفهوم الأساسي لروايتي، أو هكذا أعتقد، وهي سمة أساسية من سمات الإسكندرية" (Moor, 1998, p. 17).

ومن الجدير بالذكر أن استراتيجيات الخراط في الكتابة عن الإسكندرية كانت مختلفة تماماً عن استراتيجية الكاتب الغربيين. في مقدمة "إسكندرنتي: مدينتي القدسية الحوشية"، كان الخراط صريحاً فيما يتعلق بالاستشراق في كتابة داريل عن الإسكندرية: "فالإسكندرية عنده أساساً هي وهم غرائبي، كأنما كتب لكي يرضى نزعة لا تنتزع عند الكاتب وعند قرائه الغربيين، سواء، في اختلاق، وابتعاث خرافة راسخة الجذور عن الشرق." (الخراط، ١٩٩٤، صفحة ٧) يعتقد الخراط أن داريل رأى فقط مظهر الإسكندرية، واعتمدت كتابته فقط على منظور الدبلوماسيين الأجانب ورجال الأعمال والمراسلين وغيرهم من أفراد الطبقة العليا في قمة الهرم الاجتماعي للمدينة، كانت القصور والشقق والمكاتب وما إلى ذلك التي ظهرت في الرواية تقع جميعها في المدينة الجديدة. فالمدينة المنعزلة عن المجتمع العربي تشوه المظهر الحقيقي للبيئة المكانية للإسكندرية إلى حد ما. تستخدم روايات داريل في كثير من الأحيان الانقسامات بين السود والبيض، والعرب والأوروبيين لتسليط الضوء على المعارضة الثنائية للأعراق والثقافات، وتصوير المجتمع العربي في الإسكندرية بطريقة قبيحة. بالإضافة إلى ذلك، أثار وصف داريل للتنوع الثقافي للإسكندرية انتقادات شديدة من الخراط. بالنسبة إليه، "الحذف النصي لكلمة العرب بدلاً من كلمة المسلمين هو دليل على انفصال داريل عن الثقافة المصرية المحلية الأصيلة" (Starr, 2009, p. 50).

ومن أجل منافسة الإسكندرية المشوهة في عيون الغربيين، استخدم الخراط أساليب الكتابة المحلية لتصحيح اسم مسقط رأسه، محاولاً مواجهة منطق الخطاب الاستشراقي، حيث يتوافق الإطار الزمني في رواياته بشكل عام مع إطار "رباعية الإسكندرية" لداريل. في رواية "تراها زعفران"، يعمل الراوي ميخائيل البالغ من العمر ١٨ عاماً في أحد مستودعات الجيش البريطاني للإشراف على العمال المصريين، وفي طريقه للعثور على رئيس العمال، يجد نفسه في منطقة مظلمة بالإسكندرية، وهناك التقى بالعديد من العاهرات، ولكن بدلاً من أن يجذب إلى العناصر



الغربية و"الشرقية" المقدمة له، أصيب بالصدمة والخوف. والإسكندرية في عيون الخراط مدينة الذاكرة والخيال، تحمل ذكريات طفولته وصباه وشبابه.

وفي رواية "ترايبها زعفران"، تحتلّ المناطق الطرفية الواقعة في الجزء الجنوبي من المدينة، مثل كفر عشري وغيط العنب، الموقع المركزي للسرد، حيث تعيش فيها الطبقة العاملة والطبقة المتوسطة الدنيا. معظمهم من المهاجرين الريفيين الذين يعملون في تربية الماشية وإنتاج الألبان، بينما يعمل البعض في أحواض بناء السفن والمستودعات. ويتناقض هذا التركيز على المجتمعات الموجودة على أطراف المدينة بشكل حاد مع الكتابات الأوروبية حول الإسكندرية، لأن بعض الكُتاب الغربيين سيطلقون على هذه المناطق اسم "مناطق السكان الأصليين"، مع التركيز على اختلال النظام المكاني والمشاكل الاجتماعية المتجسدة فيها. بنى الخراط طابع الإسكندرية العالمي من منظور كاتب شرقي، وذلك من خلال كتابته عن مجتمع الطبقة العاملة في الإسكندرية. وهذه الشخصية العالمية لا تنتمي فقط إلى نخبة المدينة، بل يجب أيضًا تضمينها في حكايات المهمشين، مما يسلط الضوء على التنوع داخل الإسكندرية. في رواية "ترايبها زعفران"، يتبادل بطل الرواية ميخائيل الهدايا الدينية مع جيرانه خلال المناسبات، محطماً الحواجز بين الأديان المختلفة بموقف شامل، ويشكل هذا أيضًا تناقضًا واضحًا مع الخطاب المعارض للإسكندرية في عيون الغربيين. وفي الوقت نفسه، استخدم الخراط صورة ميخائيل لنقل وجهات نظره حول التنوع، الذي "يجعل العالم مكانًا غنيا ومتقلب الألوان" (الخراط، ١٩٩١، صفحة ١٨٠). لذلك، تعلق هالة حليم (Hala Halim) قائلة: "إن الخراط يعيد تفسير العالمية بطريقة مختلفة جذريًا، ويبعدها عن التواطؤ مع المركزية الأوروبية بينما يتخيل بلذًا أكثر تسامحًا وتنوعًا." (Halim, 2013, p. 198)

إن المفهوم الحضري للخراط يتشابك مع العقلانية والإحساس. فمن ناحية، هو تفكير المثقف حول الواقع الاجتماعي لمصر في ذلك الوقت، ومن ناحية أخرى، إنها محبة الإسكندرية. ولم يكتف في أعماله بتسجيل الواقع الاجتماعي المضطرب للإسكندرية، بل استخدم أيضًا الذكريات التاريخية والرموز الثقافية المتشابكة في المدينة من فترات مختلفة لتصحيح اسم مسقط رأسه، محاولاً بناء صورة حقيقية وغير متحيزة في عيون الكُتاب المصريين المحليين.

### ثانياً: كتابة الفضاءات الحضرية في رواية "ترايبها زعفران"

كما نجد أن الفضاء أصبح عنصراً مهماً للخراط فالفضاء قد عرض في السرد في أشمل صورته وأكمل حالاته. فقد أصبح بطلاً في الرواية بدلاً من الشخصية الإنسانية، وقد تم استحضار فضاء الإسكندرية بجميع خصائصه في الرواية، حيث نجد أنه بؤرة مركزية في السرد لا يماثله عنصر آخر. في رواية "ترايبها زعفران"، يصف الخراط المشاعر الخاصة لميخائيل والإسكندرية من خلال كتابة الفضاءات الحضرية المميزة مثل مناظر الشوارع والمنزل والبحر، ويجمع بين الذاكرة والشعور بالفضاءات الحضرية، مما يخلق مساحة عالمية للإسكندرية.

### ١- مناظر الشوارع التي ترسم خريطة الذاكرة الحضرية

يرى الفيلسوف الفرنسي الحديث ميشيل دي سيرتو (Michel de Certeau) أنه بالمشي، يقوم مستخدمو المدينة بإنشاء مدينة ديناميكية (dynamic city) غير معروفة، تلعب دوراً في العمل الداخلي للمدينة النظرية المرسومة على الخريطة وتتعارض معها. "الطريق الذي يسلكه

الشخص (حيث كان أو يتجه)، وشكل رحلة الشخص عبر الفضاءات الحضرية، لا يمكن الحفاظ عليهما إلا في ذاكرة الناس أو خيالهم." (德波拉·史蒂文森, 2015, 页 85) لقد أصبح المشي بمثابة استراتيجية لتجربة الحياة اليومية في المدينة، كما أن "خريطة المدينة" الفريدة التي يرسمها المشاة لها أهمية كبيرة لتجربة المدينة وتذكرها. عندما يقع بطل الرواية ميخائيل في أوهام الإسكندرية، فإنه يعيد إنتاج الموضوع المهم أي الذاكرة، ويؤسس أيضًا العلاقة التفاعلية بين الفضاء الجغرافي والذاكرة الحضرية. ورسم ميخائيل خريطة خيالية للذاكرة الحضرية من خلال إعادة تجميع الذكريات المجزأة بين المواقع المختلفة في الإسكندرية.

مناظر الشوارع هي تعبير مركّز عن المشهد الجغرافي الحضري، وقد أظهر الخراط حبه وارتباطه بالإسكندرية على مناظر الشوارع. وفي الرواية، قام ميخائيل بملاحظة تفصيلية للإسكندرية من منظور المواطن، وكانت مناظر الشوارع التي شاهدها أثناء سيره تمثل المزيد من الحياة اليومية للمدينة في أواخر فترة الاستعمار البريطاني، حيث يتعمق باستمرار في شوارع المدينة وأزقتها، ويكشف كل طبقاتها، من أجل استحضار ذكريات المدينة التي اختفت في أعماق قلوب الإسكندريين.

يستذكر بطل الرواية ميخائيل مشهد ركوب العربة إلى المطحن لشراء المعكرونة عندما كان طفلاً، وكانت مناظر الشوارع التي تمر في الطريق تومض أمام عينيه مثل مشاهد الأفلام: السحب في الإسكندرية بيضاء وناعمة وسرعان ما تنتقع في الضوء الساطع، والأعمدة الرخامية الزرقاء والبيضاء الشفافة، والمنزلة ذو الإضاءة الساطعة، وما إلى ذلك، كلها تتحدث عن الذاكرة الفريدة لهذه المدينة.

يُعدّ ميدان المنشية أيضًا من المناظر الطبيعية المهمة التي تحمل ذاكرة المدينة. تم بناؤه في عهد محمد علي ثم تم تجديده فيما بعد على يد المهندس الإيطالي منشية، وتقع بالقرب من الميدان العديد من القنصليات الأجنبية. كان ميدان المنشية مكانًا يتّسم بالجاذبية الكبيرة لميخائيل، فالمشي فيه يجعل ميخائيل بعيدًا عن حيّ غيط العنب، كما لو أنه سافر إلى عالم آخر، لأن العالم كان غيط العنب:

"الفراغ الشاسع في ميدان المنشية، ومبانيه الشاهقة بأعمدتها المدورة الرخامية الشكل، ونخيله السلطاني العالي بجذوعه البيضاء الرشيقة الناعمة، تميز صفوفًا على طرفي الحدائق الطويلة، اليانعة دائمًا بعشب غضّ وطريّ، والترام يتخطر ويدور حولها، أصفر ونظيفًا ويومض، وعربات الحنطور خيولها الصهباء سناكبها تدقّ موسيقى موقّعة على الأرض السوداء تلمع بالبلل، وهذا الهدوء، والجمال، والسعة الفسيحة، هذا أسطوري مخيف قليلًا، ومُغو جدًا." (الخراط، ١٩٩١، صفحة ١٢٧)

يعد الترام رمزًا مهمًا للتنقل والحركة والتفاعل في نقل الكوزموبوليتانية الجغرافية والاجتماعية والثقافية للإسكندرية، حيث يختلط الناس من مجموعات دينية وعرقية وقومية مختلفة، ويستقل ميخائيل الترام عبر مساحات اجتماعية واقتصادية مختلفة، ويغادر غيط العنب الذي تقطنه الطبقة العاملة، مروراً بالمركز التجاري للمدينة ومركز العطارين التجاري، إلى محطة الرمل

المطلّة على البحر. أصبحت عربات الشحن ذات العجلتين التي تنطلق بسرعة على طول المنتزه، وعربات الترام بالقرب من ميدان المنشية، والمطاحن التقليدية، وما إلى ذلك، كلها ذكريات من ماضي المدينة. ومع ذلك، مع نزوح المساحة الحضرية والنمو السريع للسكان في عملية التحديث. فالشوارع والمباني التي تحمل الذكريات، تختفي تدريجياً من ذاكرة الناس، وتحلّ محلها وسائل النقل الحديثة، ونماذج الإنتاج الآلي، وأنماط الحياة السريعة. تتمتع المدينة بثنائية البناء والتدمير في ظل التغيرات السريعة، مما جعل أوام التحديث الحضري تغطي ذكريات تلك الحقبة.

وفي مواجهة ذاكرة المدينة غير الواضحة بشكل متزايد، سجل الخراط مجد الإسكندرية وتقلباتها في تلك الحقبة بشعور بالحنين إلى الماضي: "هي وجد، وفقدان، بالمدينة الرخامية، البيضاء- الزرقاء، التي ينسجها القلب باستمرار، ويطفو دائماً على وجهها المزبد المضيء." (الخراط، ١٩٩١، صفحة ٥) وفي الرواية، ينعكس حنين ميخائيل للإسكندرية في حنينه إلى رموز ذاكرة المدينة المنقوشة بعلامات الماضي. وكان كلما مر بشوارع راغب باشا، يتوقف لحظة أمام السينما وينظر إلى الإعلانات الملونة، "ويقرأ عناوين الأفلام وأسماء الأبطال، ويتخيل أحداث الروايات طويلاً، وما يدور فيها." (الخراط، ١٩٩١، صفحة ١٩٩) كما أنه كثيراً ما يذهب إلى المزرعة القريبة من ترعة المحمودية لشراء جميع أنواع الفواكه والخضروات، وعند عبور السياج الخشبي، يتباطأ دائماً ويشعر بالفضول لمعرفة الأسرار الموجودة بداخله، وقال إن "الشوق سيظل مع ذلك أبداً في روعي برعما خاما مزدحما بعصارته الكثيفة وجائعا إلى التفنق والازدهار" (الخراط، ١٩٩١، صفحة ١٩٩). أشارت أليدا أسمان (Aleida Assmann)، الباحثة الألمانية في مجال الذاكرة الثقافية: "كلما كانت الحياة الحاضرة أقل في مكان ما، كان من الممكن رؤية آثار الماضي المدفونة هناك بشكل أكثر وضوحاً" (361، 2016، آسمان • آسمان). يتم دفن رموز ذاكرة الماضي من قبل "الحياة الحاضرة" التي تتميز بالتصنيع والتحضر، وبالتالي فإن حنين ميخائيل إلى الماضي أقوى وهو يمشي في شوارع المدينة.

لا يقتصر المشي في الإسكندرية على تقدير ذكريات المدينة فحسب، بل يسافر أيضاً عبر تاريخها من خلال مناظر الشوارع هذه. لقد غيرت اللعبة بين العلمانية والإسلامية المشهد الحضري للإسكندرية بشكل غير مرئي، مما جعلها تتحول بين السحر الحضري التقليدي والحديث، والمحافظة والانفتاح. في رواية "أرض الزعفران"، يرسم الخراط منظرًا طبيعيًا ديناميكيًا حول المدينة والذاكرة من خلال بطل الرواية ميخائيل، الذي يقع في سحر الإسكندرية، وهو يمشي في الشوارع وأزقتها ويراقب مناظر الشوارع. أعادت ملاحظات ميخائيل للمدينة خلق الحياة اليومية للإسكندرية في ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين، حيث رسمت مدينة ديناميكية من الذكريات. وأعاد الخراط بناء انطباعه عن الإسكندرية من خلال سلسلة من الذكريات، حيث سافرت سجلاته عن المدينة عبر فضاءات الذاكرة، وفي الوقت نفسه أظهر خصائص المشهد الحضري والحياة الحضرية في الأوهام الحضرية التي سافرت عبر الزمان والمكان.

## ٢- المنزل الذي يتم فيه تخزين الذكريات الشخصية

المنزل هو فضاء محسوس يحمل الذكريات والعواطف. يرى الفيلسوف الفرنسي غاستون باشيلارد (Gaston Bachelard) أن "المنزل ينير مزيج الذكريات والأشياء التي لا يمكن تذكرها.

في هذه المنطقة النائية، الذاكرة والخيال لا ينفصلان عن بعضهما البعض. كلا الجانبين ملتزمان بتعميق بعضهما البعض، ويشكل الاثنان مجتمعًا من الذكريات والخيال بناءً على تسلسل القيمة. (" (4, 2013, 页 巴斯东 • 巴什拉, 2013, 页 4) كنوز الماضي من خلال الخيال والذكريات. في رواية "تراها زعفران"، يركز الخراط فرشاته على موطن الروح أي المنزل، ويفتح بعناية العلاقة بين ذكريات الطفولة والخيال، ويكتسب راحة النفس من خلال إعادة تجربة الذكريات المحمية.

يبدأ انطباع ميخائيل عن منزله بإحساسه بالذوق. "أن الرائحة هي أحد مفاتيح الذاكرة، فالرائحة عند الخراط كما هي عند الكاتب الفرنسي المعروف مارسيل بروست تحمل أو تنطوي على بناء شاسع من الذكريات." (الخراط، ١٩٩٤، صفحة ١٥) كان يتذكر في كثير من الأحيان وجبات الفطور التي كانت والدته تعدها بعناية عندما كان طفلاً، وكان الشعور بالرضا الذي كان يشعر به عندما يلمس طرف لسانه الطعام يذكره بمنزله وبوالدته:

"فطوري دائما تسقية بالشاي واللبن فقط. نفتت أومي وجه الخبز الناشف الرقيق، فقد كنت لا أحب بطن الرغيف الخشن المحبب بالردة، وتُغرَقُ بالشاي واللبن حتى يتشربه ويلين، ولكنه لا يتعجن... أرفع بها الخبز المسقي بالشاي واللبن، فأجده سانغ السخونة وسهل البلع." (الخراط، ١٩٩١، الصفحات ٦١-٦٢)

في المنزل، أعجب ميخائيل أيضاً برائحة فطير الملاك الذي تم إعداده في يوم عيد ميلاده. لقد استيقظ على طبخة العجين لوالدته، "وفي أول الصباح تأتي أقراص الفطير ساخنة من الفرن، هشّة، مكورة ومنداحة قليلاً، وجهها محموش محروق الصفرة لامع من زيت السيرج وعليه النقوش باللغة القبطية والصليب المورق الأطراف" (الخراط، ١٩٩١، صفحة ١٠٥). هذا النوع من الذاكرة الناتج عن رائحة معينة جعل عقل ميخائيل يظل معلّقاً في تلك اللحظة التي لا تُنسى. بالنسبة لميخائيل، يعتبر المنزل بمثابة جهاز الإثارة لذكريات الماضي في المدينة، ولا تزال مشاهد ذكريات الطفولة العالقة تطفو على السطح في ذهنه بمساعدة المنزل، حيث تمتزج بذكريات الذوق والسمع، وتشهد على "طفولة الشمس وعطش الصبا ومعاشق الشباب" (الخراط، ١٩٩٤، صفحة ٢٤).

على الرغم من أن المنزل هو المسكن الذي يحمل ذكريات ميخائيل الشخصية، فإنّه الذكريات المحبوسة في المنزل تتلاشى تدريجياً مع تغير الفضاءات. شهدت الإسكندرية، في عملية التحديث، تغيرات كبيرة في الهندسة المعمارية والشوارع ونمط الحياة وما إلى ذلك. ومن الطبيعي أن يتأثر موقع المنازل بالتخطيط الحضري. لم تغير هذه التغييرات المظهر الحضري الأصلي فحسب، بل دمرت أيضاً ذاكرة ميخائيل الشخصية إلى حد ما. على سبيل المثال، انقطعت صداقة ميخائيل مع صديق طفولته عندما اضطر والداه إلى الانتقال من أجل استئجار شقة أرخص وتجنب خطر الاستيلاء على ممتلكاتهم شهراً بعد شهر لسداد الإيجار المؤجل الجزئي، كما فقد تدريجياً ذاكرته عن طعم فطير الملاك، "كانت أومي قد انقطعت عن صناعة فطير الملاك منذ الحرب، والغلاء، وشح السمسم، ونسيت كل شيء عنه تقريباً" (الخراط، ١٩٩١، صفحة ٣٢). كلما فكر ميخائيل في هذه الذكريات الشخصية في المنزل، أحسّ وكأنه يبكي على الأطلال: "أطلال الطفولة والصبا والشباب التي تقوّضت، وما زالت رسمومها ماثلة، غير دراسة بعد، وأنقاض القلب الذي دمرته

أمجاد معاشقه ولكن أعمدته قائمة لا تريد أن تنقض ولا تريد أن تنقضي." (الخراط، ١٩٩١، صفحة ١٢٨)

يرمز المنزل إلى طفولة ميخائيل السعيدة ويرتبط بذكرياته الشخصية. من خلال بناء المنزل، يتم استكشاف ذكريات الذوق والسمع باستمرار، وكل جزء من الذاكرة لا يرمز فقط إلى الأشخاص والأشياء من الماضي، ولكنه يشكل أيضًا جزءًا مهمًا من كتابة الحنين إلى الماضي. وسط التغيرات في الزمان والمكان في المدينة، يبقى منزله وسيلة له لمتابعة الماضي.

### ٣- البحر الذي يفسر الذاكرة الثقافية

فالبحر رمز للتنوع والانفتاح والتسامح، كما أنه فضاء حضري مميز للغاية في رواية "ترايبها زعفران". فالبحر باعتباره مكانًا تجمع الذاكرة والخيال، لا يجسد حبّ الخراط الشخصي للإسكندرية فحسب، بل يفسر أيضًا الذاكرة الثقافية الفريدة للمدينة، والتي تضرب بجذورها في تاريخ الإسكندرية. استخدم الخراط صورة البحر لتكوين خصائصه الكتابية الخاصة، ومن منظور شرقي قام بتفكيك كتابة المدينة في عيون الكتاب الغربيين.

أولا وقبل كل شيء، يُعتبر البحر الأبيض المتوسط في نظر المؤلف صورة ملونة: "ألوان البحر قد أخذت تتخطط، أمام عيني، بنفسجية وزرقاء وبيضاء فضية مشعة تحت سحاب أبيض تخفي الشمس وراءه، وتضيئه باحمرار سائل مشاع، وهودء البحر عميق، صفحته مبسوط لا تكاد تترجرج، وشوشة الموج الذي يترقرق، على مهل، ناعمة، أسمع صوت الصمت المطبق تطرزه وتنممه." (الخراط، ١٩٩١، الصفحات ١٢٤-١٢٥)

ومع ذلك، بالإضافة إلى هذا النوع من الذاكرة المرتبطة بالعواطف الشخصية، تكشف كتابة الخراط عن البحر المزيد عن تفكير المتقف المصري المعاصر حول ذاكرة المدينة المتعددة الثقافات. الإسكندرية، المعروفة باسم "عروس البحر الأبيض المتوسط"، ولدت ثقافتها العمرانية الفريدة تحت هبة البحر، فاندجت الثقافة الفرعونية المصرية والثقافة اليونانية والرومانية القديمة والثقافة العربية الإسلامية مع بعضها البعض في تراث التاريخ، مما قدم للناس بوعي جمعي وتاريخي. يحاول الخراط في الرواية استحضار التاريخ والثقافة المفقودين من خلال كتابة رموز تمثل ذاكرة الثقافات المختلفة.

يتذكر بطل الرواية ميخائيل العديد من الصور التي أهداها له زميله جابر في طفولته، التي اقتطعت إحداها من مجلة "أبولو" صورة نفرتيتي وهي واحدة من أقوى النساء وأكثرهن مكانة في تاريخ مصر القديمة. "نفرتيتي تجلس على منصة عالية بدرجتين عن الأرض، وبجانبيها أصص زرع بنفسجي وحشي مهتل تحت ستارة ثقيلة زرقاء عليها رسم أعواد اللوتس القائمة الطويلة تنتهي بازدهار مقوس تخطيطي الزخرفة." (الخراط، ١٩٩١، صفحة ٨٧)

عندما كان ميخائيل يتجول في حديقة مليئة بجميع أنواع الفواكه والخضروات، شعر وكأنه دخل الحديقة السحرية في "ألف ليلة وليلة"، وأحسّ بالسحر الناتج عن تشابك الشخصية. تبادرت إلى ذهنه الذاكرة والتاريخ، رأى في ذهنه ظل جده وأبيه وابن عمه وعمه في أحد المزارعين في الحديقة، وكانت عيونهم جميعاً عميقة وثاقبة مثل هذا الرجل. "وأني لا أنفصل عنه وعنهم، وأن

في يديه تربة قلبي الملوثة الغمقة المعجونة بالطين لا تجفّ أبداً، وأن هذه الجنية هي بستان ألف ليلة وليلة المسحور الذي طالما التقى فيه المحبّون خفية وعرفوا كما عرفت من فنون العشق ما لم يعرفه من قبل بشر. " (الخرائط، ١٩٩١، صفحة ٢٠٠)

وصف الخراط التعددية الثقافية في الإسكندرية في "إسكندريتي: مدينتي الحوشية القدسية":  
"عرشت أشواق عشقي في مدينتي العظمى الإسكندرية، الثغر المحروس، الميناء الذهبية، رؤيا ذي القرنين وصنيعة سوستراتوس المهندس العظيم، ولؤلؤة قلبطرة الغانية الأبدية، المدينة الساطعة المرخمة لا تحتاج بالليل إلى نور لفرط بياض رخامها، أكاديمية أرشميدس واراتونسيس الفيلسوف والشاعرين أبولونيوس وقاليماخوس، مثنوى الميوزات جميعا وعاصمة القداسة والفجور معا، أرض القديس مرقس والقديس أنانيوس وأصحاب الكنيسة البوقالية أوريجانوس والأسقف ديونيزيوس والأبنا أثناسيوس الرسولي الواقف وحده مع الحق ضد كل العالم." (الخرائط، ١٩٩٤، صفحة ٢٢)

من خلال تفسير الذكريات الثقافية المتعددة، تنقل رواية "تراها زعفران" النظرة الثقافية الخاصة بالخرائط، أي أن "الدائرة الثقافية المتوسطة" التي تشكلت في تبادل واصطدام الحضارات المتعددة قد ولدت روح الإسكندرية الحضرية الفريدة. كما أعرب الخراط عن آرائه حول التنوع الثقافي في مقال "الأصالة الثقافية والهوية الوطنية"، حيث اعترف بالتنوع الذي تشكله الثقافات المختلفة في وحدة متناغمة، ورأى أن "التنوع ضمن بعض الانسجام الشامل بمثابة عامل الإثراء وليس عامل التشتيت أو التقسيم" (Al-Kharrat, 2005, p. 24). يعكس هذا الفهم روحه العالمية في الدفاع عن التنوع واحترامه. وتضم الدائرة الثقافية التي يشكلها البحر الأبيض المتوسط مركزا لها الأساطير المصرية القديمة والفلسفة اليونانية والمعتقدات الدينية وغيرها من العناصر الثقافية في نظام واحد، يتجاوز الحدود الإقليمية ويصبح التراث الروحي المشترك لجميع الأمم. لذلك، ينقل الخراط اندماج الثقافات المتعددة في الرواية بدلاً من الافتراض الأيديولوجي للانفصال. وينبغي أن تصبح الإسكندرية حلقة الوصل للتعلم المتبادل بين الحضارات باعتبارها وريثة التاريخ الشرقي والغربي ومركزاً للإنسانية الكلاسيكية.

وضع الخراط تاريخ المدينة في البحر المليء بالشعرية. وكما أشارت التعليقات ذات الصلة: "وقد قام بأعمال ممتعة في فنّ الواقعية السحرية، حيث يمتزج ما حدث في الماضي القريب مع الماضي العريق، في أمواج متلاطمة لا زمن لها لبحر الإسكندرية ولشطحات خيال الكاتب معا." (الخرائط، ١٩٩٤، صفحة ١٨) وفي مواجهة اللامبالاة التدريجية للذاكرة الثقافية تحت تأثير الحداثة، يشعر الخراط أيضاً بقلق عميق. ويأمل إعادة اكتشاف الذكريات الثقافية المتنوعة للإسكندرية عبر البحر، وهي مساحة مليئة باللانهاية.

### ثالثاً: الحنين إلى الماضي في كتابة الإسكندرية في رواية "تراها زعفران"

في مناقشته للتنمية الحضرية المعاصرة في العالم العربي، يصف الباحث ياسر الشستاوي (Yasser Elshestawy) "السردي المعماري أو الحضري النموذجي في الشرق الأوسط بأنه "السردي المفقود" (Elshestawy, 2004, p. 3). يتجلى "السردي المفقود" في النصوص الأدبية على أنها الحنين إلى الماضي الإيجابي والمثالي. ومن الجدير بالذكر أن كتابة الحنين إلى الماضي

هي استجابة الأدب المصري المعاصر للواقع الاجتماعي الحالي المكسور، وهناك خلفية تاريخية خاصة وراءها. أولاً، أدى انبعاث الإسلام السياسي إلى تحويل العلاقات العرقية المعقدة أصلاً في مصر إلى الصراعات. وثانياً، أتاحت عملية التحرير الاقتصادي في سياق العولمة الفرصة للاستعمار الجديد الغربي للتغلغل. وفي هذا السياق، "كان التحول العالمي الذي ظهر في الأدب المصري في التسعينيات... بمثابة رد فعل على القومية العرقية والدينية من ناحية، ورد فعل على العولمة المتجانسة من ناحية أخرى" (Starr, 2009, p. 46). منذ ثمانينيات القرن العشرين، ألف الكاتب المصري الخراط عددًا من الروايات التي تدور أحداثها في الإسكندرية، وقد استجاب للاتجاه المذكور أعلاه بكتابة الحنين إلى الماضي وربط الذاكرة الشخصية لبطل الرواية بالفضاءات الحضرية في النص، وإعادة بناؤه، حيث تم تشكيل هوية المدينة التي تبرز طابع الإسكندرية العالمي.

لا يرتبط الحنين إلى الماضي في كتابية الإسكندرية للخراط بالعلاقات التمثيلية المتعددة الأبعاد بين الذاكرة الفردية والفضاءات الحضرية فحسب، بل يرتبط أيضًا ارتباطاً وثيقاً بالتحول والتطور الاجتماعي والثقافي الذي شهدته المدينة قبل ثمانينيات القرن العشرين. بعد الحرب العالمية الثانية، أدت الأيديولوجيات الاجتماعية المتغيرة بسرعة في مصر إلى خضوع الإسكندرية لتغييرات كبيرة، فقد شهدت هذه المدينة الساحلية على البحر الأبيض المتوسط، والتي كانت معروفة ذات يوم بتعدد الثقافات والعالمية، هجرة سكانية واسعة النطاق على مر العقود. في ستينيات القرن العشرين تقريباً، تأثرت الإسكندرية بالحرب العربية الإسرائيلية وحرب قناة السويس عام ١٩٥٦، وهيمنت سياسات الرئيس عبد الناصر الاشتراكية والتأميمية على العملية الاجتماعية في مصر، واضطرّ يهود الإسكندرية والمقيمون الأجانب إلى مغادرة مصر بسبب وضعهم المهمش. فقد انتقد بعض العلماء النظام الاستعماري الذي رافق الصفات العالمية، وأصبح تحول الإسكندرية من "مدينة عالمية إلى عاصمة إقليمية" (Starr, 2009, p. 32). باختصار، لم تغير التغييرات الاجتماعية والثقافية التي شهدتها الإسكندرية في الثمانينيات البيئة المكانية الحضرية فحسب، بل أثرت أيضاً في شكل الكتابة في الأدب المصري المعاصر، والذي يتميز بشكل أساسي بالحنين إلى الماضي.

في مواجهة التغييرات في المجالات المادية والاجتماعية والثقافية للإسكندرية، ركز الخراط كتاباته على شوارع الإسكندرية وأزقتها، وبنى مساحة سردية عن الحنين إلى الماضي والذاكرة في متاهة النص، مستخدماً الأشخاص والأشياء المختبئة في النسيج الحضري لاستعادة أجزاء من الذكريات من الزمان والمكان الماضيين للتعويض عن الشعور المفقود بالانتماء في الواقع، لأن "الهدف النهائي للحنين إلى الماضي هو الروابط الاجتماعية الإيجابية التي تكمن في الزمان والمكان، والتزامه بالانتماء والاستمرارية" (戚涛, 2020, 页 90). يكتب الخراط عن مجد الإسكندرية بطريقة الحنين إلى الماضي، مستخدماً الذاكرة الحضرية لإعادة بناء مشهد المدينة المتشابك مع الخيال والواقع، ويكمل إعادة تشكيل الفضاءات الحضرية للإسكندرية في "فانتاسماغوريا" و"الحنن" عن الذاكرة.

كانت فانتاسماغوريا (phantasmagoria) في الأصل شكلاً خاصاً من عروض الفوانيس السحرية التي كانت شائعة في تسعينيات القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. ويستخدم الإسقاط العكسي بحيث لا يتمكن الجمهور من رؤية الأضواء، مما يؤدي إلى أن تكون عملية إنتاج

الإسقاط غير محسوسة. نظرًا لعدم وجود إحساس بكيفية إنشاء الصورة، فإن الانتقال من صورة إلى أخرى يخلق تأثيرًا بصريًا يشبه الحلم أو شبحيًا. ومع تطور عملية التحديث، يلبي فانناساغوريا تدريجيًا ويخلق أشكالاً جديدة لتجربة الحياة الحضرية: "لقد حولت صورة الحداثة والتقدم المدينة وحتى التاريخ نفسه إلى فانناساغوريا." (31, 2014, 派尔 · 斯蒂夫) في رواية "تراها زعفران"، ينغمس بطل الرواية ميخائيل في فانناساغوريا الفضاءات الحضرية المتغيرة في الإسكندرية باستمرار من خلال تتبع ذكريات طفولته. فالمدينة في نظره موطن جسده وروحه، وتحمل الكثير من ذكرياته، لأن "المدينة نفسها تحتوي على مجموعة كبيرة من فانناساغوريا وسلسلة كبيرة من المنشآت لتصنيعها وصيانتها" (90, 2014, 派尔 · 斯蒂夫)، وتخدم الفضاءات الحضرية المختلفة باعتبارها ناقلاً ل فانناساغوريا المدينة، أثناء بناء المدينة نفسها، تمر أيضًا عبر المدينة والتاريخ، مما يخلق صورة مدينة متنوعة ويحكي حزن المدينة.

الحزن (Hüzün) كلمة تركية ذات أصل عربي. وحين تذكر في القرآن، وقد وصف النبي محمد السنة التي فقد فيها زوجته وعمه أبا طالب بأنها "سنة الحزن" أي سنة السوداوية، وهذا يؤكد أن الكلمة تعني شعورًا بخسارة روحية عميقة. لكن إذا كانت كلمة الحزن قد بدأت حياتها ككلمة تعبر عن الخسارة والألم الروحي والأسى المصاحبين لها. نرى مع الوقت معنيين للحزن مختلفين تمامًا، يستدعي كل منهما رؤية فكرية متميزة. ووفقًا للرؤية الأولى، نشعر بما يطلق عليه الحزن حين نغمس بقوة في متع الدنيا والكسب المادي. وتقدم الرؤية الثانية، وهي رؤية صوفية، فهما للكلمة أكثر إيجابية ورحمة ولمكان الفقد والأسى في الحياة. "إن الحزن عند المتصوفة ألم روحي نشعر به، لأننا لا نستطيع أن نكون قريبين من الله قربًا كافيًا، ولأننا لا نستطيع أن نعبد الله كفاية في هذه الدنيا." (باموق، ٢٠١٠، صفحة ١٢٠) ويرى الخراط أن حزن الإسكندرية يجسد المخاوف بشأن الثقافة المحلية المتلاشية في المدينة تحت تأثير الحداثة، كما أنه يركز أيضًا على العالمية التي اختفت تدريجيًا في الإسكندرية منذ ثمانينيات القرن العشرين. تقدم كتابة الحنين إلى الماضي للفضاءات الحضرية في رواية "تراها زعفران" فانناساغوريا ذكرة الكاتب للإسكندرية في طفولته، وتحدث عن دلالة الحزن في الإسكندرية، لأن "الشعور بهذا الحزن يعني أن ترى المشاهد، وتستحضر الذكريات، حيث تصبح المدينة نفسها صورة الحزن وجوهه" (باموق، ٢٠١٠، صفحة ١٢٤).

يؤكد أندرو كينكيد (Andrew Kincaid)، الذي يناقش التجديد الحضري وظهور المذكرات الحضرية في دبلن، على العلاقة بين إنتاج الذاكرة والمشهد المتغير للمدينة: "المذكرات يمكن أن تكون نقدًا وإعادة فحص للحاضر. يتذكر الناس المدينة المبكرة في دبلن بطريقة الحنين إلى الماضي." (Kincaid, 2005, p. 18) وتنقل رواية "تراها زعفران" أيضًا حنين الكاتب إلى زمان ومكان الإسكندرية الماضيين في شكل المذكرات، استجابةً للتغيرات التاريخية. وفي أواخر سبعينيات القرن العشرين، تم تأميم الإسكندرية بشكل أساسي، واختفى طابعها العالمي تدريجيًا. أدت هذه التغيرات الاجتماعية والتاريخية إلى صعود الإسلام السياسي، مما جعل الصراعات الدينية والعرقية تتحول إلى مشكلة اجتماعية كبرى واجهتها مصر في تسعينيات القرن العشرين. فإن الخراط حساس للغاية تجاه التغيرات الكارثية التي شهدتها الإسكندرية، حيث ولد ونشأ فيها. ولهذا



فهو يستخدم نهج الحنين إلى الماضي لتقييم ذكريات هذه المدينة في ذكرياتها الأبدية من أجل نقل حزن الإسكندرية. يشير الفصل الافتتاحي من رواية "ترايبها زعفران" إلى تفرد هذه المدينة بالنسبة للكاتب:

"هي وجُد، وفقدان، بالمدينة الرخامية، البيضاء – الزرقاء، التي ينسجها القلب باستمرار، ويطفو دائما على وجهها المزبد المضيء. إسكندرية، يا إسكندرية، أنت ليست، فقط، لؤلؤة العمر الصلبة في محارثها عبر المفوضة. مع ذلك، أنشودتي إليك ليست إلا غمغمةً وهينمة." (الخراط، ١٩٩١، صفحة ٥)

المشاعر المعقدة المتشابكة مع الحب والخسارة هي الذاكرة الفريدة لبطل الرواية ميخائيل عن الإسكندرية، حيث شهدت هذه المدينة الرخامية الزرقاء والبيضاء كل تفاصيل طفولة ميخائيل وشبابه ومراهقته كلها. ولذلك فإن المدينة، إلى حد ما، هي الحامل الذي يمكن أن تعلق عليه الذاكرة، وتحمل داخلها فانتاسماغوريا الحضرية المتغيرة باستمرار. في دراستها عن الحنين إلى الماضي والذاكرة والمكان في الإسكندرية، تؤكد فيرونیکا ديلا دورا (Veronica Della Dora): "ربما تكون المدينة هي المستودعات الأكثر كثافة وتعقيداً لرموز الذاكرة، وبالتالي فهي نقاط رئيسية في جغرافيات الحنين إلى الماضي." (Dora, 2006, p. 212) إن التوسع وإعادة الإعمار والتغيرات الاجتماعية والثقافية التي شهدتها الإسكندرية تنعكس جميعها في طوبولوجيا ذاكرة المدينة. يمكن القول إن الإسكندرية فضاء يحمل المشاعر والذكريات، وسرد الخراط هو سجلّ لطريقة تشغيل الذاكرة، حيث تتراكم ذكريات الشخصيات والحبات والأماكن كلها في ثنانيا المدينة. في رواية "ترايبها زعفران"، يحاول بطل الرواية ميخائيل فرز ذكريات الإسكندرية في طفولته من خلال الحنين إلى الماضي، فيجد الأرض المليئة بالزعفران في ذاكرته. يعكس الحنين إلى الماضي الناتج عن الارتباط العاطفي القوي للفرد بمكان ما، وهو خيال الفرد المثالي للأشخاص والأشياء عبر زمان ومكان مألوفين. استعاد ميخائيل ذكريات طفولته الضائعة من خلال الحنين إلى الماضي، وجمع شظايا الزمان والمكان الماضيين في الذاكرة والخيال، واستعاد مشاهد التجول في شوارع الإسكندرية خلال طفولته ومشاهد الجيران وهم يتشاركون الأطعمة اللذيذة في المناسبات. تردد صدى الفيلم في ذهن ميخائيل، لكن هذه الذكريات ظلت تؤلم قلبه أيضاً. لم يستطع إلا أن يتنهد: "ما معنى هذا التوجع الصعب، وضعف النفس، ولذع الحنين القديم؟ وما قيمته؟" (الخراط، ١٩٩١، صفحة ٩٦)

تصور رواية "ترايبها الزعفران" الثقافات المتنوعة والتاريخ الغني للإسكندرية في ومضات من الذاكرة. ورغم أن الرواية تتقاطع مع أحداث كثيرة في حياته، فإن الخراط يرفض أن يطلق على روايته اسم السيرة الذاتية أو شبه السيرة الذاتية. لقد تناول هذه المسألة في رسالته إلى "ترايبها زعفران"، موضحاً أن الأحداث في نصّه كانت عبارة عن الأحلام، وسحب من الذكريات التي كان ينبغي أن تحدث ولكنها لم تحدث أبداً. ويقدم للقراء عدسة يمكننا من خلالها قراءة نصه وفتحه في فضاءاتها المختلفة لاكتشاف القيمة والمعنى المختبئ بداخلها. وزودته الإسكندرية بموقع تنقيب وطرس ومصدر لا ينضب من التاريخ والقصص والأساطير.

على الرغم من أن تذكر الماضي لا يمكن أن يحل المأزق الحالي بشكل كامل، فإن سلوك الحنين إلى الماضي يمكن أن يصلح فقدان الفرد لهويته إلى حد ما. في رواية "ترابها الزعفران"، تدور القصة بأكملها حول السؤال الأساسي "من أنا؟"، حيث يسأل بطل الرواية ميخائيل نفسه باستمرار في ذكرياته ليؤكد هويته، لأنه فقط من خلال عملية الذكريات يستطيع الناس مقاومة عابرة الوجود. ومع ذلك، فإن حنين بطل الرواية ميخائيل إلى الماضي ليس مجرد تسجيل للماضي، ولكنه يستخدم "نصوصاً" من عناصر مختلفة لخلق صورة للإسكندرية يتشابك فيها الماضي والحاضر، والأحلام والواقع. وفي ظل التشكيل الثلاثي للحنين إلى الماضي والذاكرة والفضاءات الحضرية، تتشكل الإسكندرية في مدينة الذاكرة، حيث تتداخل المشاعر المختلفة مثل الفرح والحزن والرغبة والخوف. في "يابنات إسكندرية"، عبر بطل الرواية ميخائيل عن أهمية الذاكرة للمدينة، بدافع من الحنين إلى الماضي، حيث زار مدناً حول العالم خلال تجواله غير المنظم في الذاكرة: "هل يمكن أبداً العودة إلى أماكن الصبا والشباب المفقودة المبعوثة من قبرها العميق إسكندرية الثلاثينات وقاهرة الخمسينات وبطرسبرج دستوفسكي وأخميم الأربعةينية وباريس موباسان وموسكو تشيخوف؟" (الخرائط، ١٩٩٠، صفحة ٦١)

بالإضافة إلى ذلك، فإن تركيز الخرائط الفريد على الشعرية المكانية يسلط الضوء على حيته الإسكندرية وتأثير التجربة الحضرية في الروايات الأدبية، فهذه التجربة تجعل من المدينة صورة متدفقة يتم استرجاعها باستمرار بطريقة تجمع بين الواقعية والوهمية، مما يشكل نموذجاً سردياً لتيار الوعي يشبه بروست من خلال كتابة الفضاءات والذاكرة الشخصية. استخدم الخرائط كتابة الحنين إلى الماضي لبناء الشعرية المكانية الفريدة للإسكندرية للتغيب عن الذكريات الفردية والجماعية المختبئة في ثنايا المدينة، وبالتالي إعادة تشكيل الهوية الثقافية للإسكندرية. على سبيل المثال، غالباً ما ترتبط الفضاءات التي تظهر في رواية "ترابها زعفران" بطابع الإسكندرية المتنوع والمتعدد الأعراق والعالمية، وتذكر بتناغم علاقات الجوار والتماسك الاجتماعي القوي من خلال ذاكرة الفضاءات المحددة مثل المنزل. فإن ذاكرة الصورة المكانية للبحر تعكس المناخ المنفتح لهذه المدينة. ومن هنا يمكن تلخيص كتابة الحنين إلى الماضي للإسكندرية في الخرائط على أنه عرض مجزأ للذاكرة الحضرية، ويتم بناء نموذج جديد لكتابة الحنين الحضري إلى الماضي مع تيار الوعي من خلال ربط الذاكرة الشخصية والفضاءات المحددة.

### الخاتمة

الإسكندرية هي البطلنة الدائمة الحدوث لروايات الخرائط، هنا تحدث قصص مختلفة وتعرض هنا مواقف حياتية مختلفة. لقد وضع حب الخرائط للإسكندرية وتجربته الحضرية أساساً لكتابته عن الإسكندرية، فقد كان ينوي تصحيح اسم مسقط رأسه من خلال الكتابة عن الإسكندرية التي ولد ونشأ فيها، وتفكيك الإسكندرية التي كانت في عيون الكُتاب الغربيين. تركز رواية "ترابها زعفران" على مشاركة القراء بقصيدة غنائية عن ذاكرة الإسكندرية. من خلال الكتابة عن الفضاءات الحضرية ذات الأبعاد المختلفة، مثل مناظر الشوارع والمنزل والبحر، يُظهر الخرائط للقراء مساحة إسكندرية عالمية متنوعة ومتعددة الأعراق ودولية، مدرّجاً تشكيل الأدب للفضاء الإسكندري وتجسيده في النصوص، مما قدم مساهمة جديدة في السرد الحضري للإسكندرية في مجموعة من النصوص والسير الذاتية والذكريات. إن الحنين إلى الماضي لكتابة المدينة في رواية "ترابها

زعفران" هي استجابة الأدب المصري المعاصر للواقع الاجتماعي المحطم الحالي، فهي تهدف إلى تصوير عالم أكثر تنوعا وانفتاحا وشمولا من خلال ذكريات الحنين إلى الزمان والمكان الماضيين. وكما يقول أونيل، يمكن للمرء في النصوص الأدبية أن يدرك "المثالية العالمية المنفتحة على الاختلافات الثقافية والدينية" (Oniwe, 2016, p. 47).

#### المصادر والمراجع:

##### أولا:

##### المصادر العربية:

- ١- باموق، أورهان. (٢٠١٠). اسطنبول: الذكريات والمدينة، بيروت: مؤسسة الانتشار العربي.
- ٢- الخراط، إدوار. (١٩٩٠). يا بنات إسكندرية، بيروت: دار الآداب.
- ٣- الخراط، إدوار. (١٩٩١). تراها زعفران: نصوص إسكندرية، بيروت: دار الآداب.
- ٤- الخراط، إدوار. (١٩٩٤). إسكندريتي: مدينتي القدسية الحوشية، الإسكندرية: دار ومطابع المستقبل.

##### الدوريات العربية:

- ١- دلشاد، شهرام. (٢٠٢١). "السردي الكولاجي وخصائصه في رواية إسكندريتي لإدوار الخراط". مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، ١٢(٣٣)، ٨٢-٥٩. DOI: [10.22075/LASEM.2021.21701.1258](https://doi.org/10.22075/LASEM.2021.21701.1258)

##### ثانيا: المراجع الصينية

- 1- آليد-آسمن (2016). *تراجيديا: شكل الذاكرة والتغيير*، بانلوتر. بكين: بكين يونيفرسايتي ناشر.
- 2- ديولر-ستيفنسن (2015). *المدن والمدن*، لي دنهانتر. بكين: بكين يونيفرسايتي ناشر.
- 3- آسدي-بانلر (2013). *المدن والشعر*، آليدتر. شانهي: شانهي ناشر.
- 4- ميكي-كلون (2003). *المدن الجغرافية*، لي شوهوا، سونغ مينتر. نانجينج: نانجينج يونيفرسايتي ناشر.
- 5- دي تشو (2020). *المدن الغربية*: *المدن*. *المدن الغربية*, 41 (2), 87-101.
- 6- ستيفن-بيرل (2014). *المدن الحقيقية: الحداثة، المدن والمدن*، سون ليتر. نانجينج: جيانغسو فونجهاو ناشر.
- 7- وانج تشون (2013). *المدن والمدن* تحت النظرية الحديثة للرواية الغربية. *المدن الغربية*, 35 (4), 131-137.
- 8- زوان فونج (2016). *المدن الغربية* للدراسة. بكين: بكين يونيفرسايتي ناشر.

##### ثالثا: المراجع الإنجليزية

- 1- Al-Kharrat, Edwar. (2005). Cultural Authenticity and National Identity. *Diogenes*, (No.52) 21-24. <https://journals.sagepub.com/doi/10.1177/039219210505200204>
- 2- Al-Nowaihi, Magda. (1994). Memory and Imagination in Edwar Al-Kharrat's "Turābuhā Za'farān". *Journal of Arabic Literature*, 25(1) 34-57. <https://www.jstor.org/stable/4183321>
- 3- Crang, Mike. (1998). *Cultural Geography*. London: Routledge.
- 4- Dora, Veronica Della. (2006). The Rhetoric of Nostalgia: Postcolonial Alexandria Between Uncanny Memories and Global Geographies. *Cultural Geographies*, 13(2) 207-238. <https://doi.org/10.1191/1474474006eu3570a>
- 5- Elshestawy, Yasser (Ed.). (2004). *Planning Middle Eastern Cities: An Urban Kaleidoscope in a Globalizing World*. London: Routledge.
- 6- Haag, Michael. (2004). *Alexandria: City of Memory*. New Haven: Yale University Press.
- 7- Halim, Hala. (2013). *Alexandrian Cosmopolitanism: An Archive*. New York: Fordham University Press.

- 8- Kincaid, Andrew. (2005). Memory and the City: Urban Renewal and Literary Memoirs in Contemporary Dublin. *College Literature*, 32(2) 16-42. <https://www.jstor.org/stable/25115265>
- 9- Moor, De. Wild, Stefan (Eds.). (1998). *Writing the Self, Autobiographical Writing in Modern Arabic Literature*. London: Saqi Books.
- 10- Oniwe, Bernard Ayo. (2016). Cosmopolitan Conversation and Challenge in Teju Cole's Open City. *Journal of the African Activist Association*, 39(1) 43-65. <https://www.proquest.com/scholarly-journals/cosmopolitan-conversation-challenge-teju-coles/docview/1781171904/se-2>
- 11- Starr, Deborah. (2009). *Remembering Cosmopolitan Egypt: Literature, Culture and Empire*. London: Routledge.